جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج
الملتقى الدولي حول أعمال محمد البشير الإبراهيمي
الشاهد الثقافي في نصوص البشير الإبراهيمي: من التمثل إلى التوظيف
29-30 أفريل 2019

تمثلات الإبراهيمي للشباب الجزائري بعد 72 سنة: قراءة تحليلة استشرافية سيميولوجية

رحيم حسين
جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج
rahim_hocine@yahoo.fr
rahim.hocine@univ-bba.dz

ملخص:
هذا البحث هو عبارة عن إعادة قراءة في تمثلات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: "الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر"، المنشورة في سنة 1947، وهو محاولة متواضعة لوضع مقاربة، قائمة على تحليل استشرافي سيميولوجي، ما بين تمثلات مفكر ومصلح غني عن البيان، وتمثلات الشباب الجزائري اليوم في ظل واقع مختلف ومحيط متغير، يتأرجح ما بين ظروف اليأس ومقتضيات الطموح، وما بين هاجس الانهزام وروح التحدي. حاولنا من خلال هذه المساهمة المتواضعة استجلاء المعاني والدلالات المتضمنة في نص "التمثلات الإبراهيمية"، مبرزين بعدها الروحي والقيمي، من خلال ربطها بالمقاصد، مع التركيز على عملية إسقاطها على واقع الحال، مستهدفين بذلك إعادة الاعتبار لفئة الشباب، وشحذ هممهم وتحريك القوة الكامنة فيهم في سبيل خدمة الوطن والأمة.

الكلمات الدالة: البشير الإبراهيمي، الشباب، تمثلات، تحليل سيميولوجي.

مقدمة:

محمد البشير الإبراهيمي، المفكر العلاّمة الجزائري، تاريخ حافل بالمآثر والمنجزات في شتى المجالات، غير أن المتتبع لمساره الإصلاحي يدرك بوضوح أن اهتمامه كان منصبا على فئة الشباب، إن من خلال التربية والتكوين والتوعية، أو من خلال المنجزات التي حققها أو كان له يد فيها، والتي من أبرزها "جمعة العلماء المسلمين الجزائريين"، التي أسسها مع الشيخ ابن باديس، رحمهما الله وطيّب ثراهما، فلقد كان يخاطب همة الشباب وعزيمتهم، وهو خطاب نابع من همة كان يتقد بها وجدانه وبدنه، وخطاباته وكتاباته موجهة إلى الشباب الجزائري في الداخل

في المهجر، بل وإلى الشباب المسلم أينما كان. ومما كتب في ذلك حول شباب الجزائر بالمهجر: "فهناك أولاد بلغوا الحلم، وهم لا يعرفون شيئا عن الإسلام، ولا كلمة عن العربية ... إن هذا الواجب مؤكد على جمعية العلماء من حيث الإرشاد والتوجيه والتعليم"[1].

تعد تمثلات الإبراهيمي "الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر"، أو لنسميها "التمثلات الإبراهيمية"، التي نشرت سنة 1947، جوهرة خالدة، تندرج ضمن الأدب المقالي الاجتماعي الاستشرافي، أبدع من خلالها الإبراهيمي لغة ومضمونا، حتى إنها أضحت مرجعا فريدا، ليس فحسب بالنسبة للأدباء واللغويين، ولكن أيضا وأساسا بالنسبة للتربويين والاجتماعيين ومنظري الإصلاح والتغيير، فلقد أجمع فيها وكفى، ولخّص فيها ووفى، وحقت أن تكون منطلقا للبناء المعرفي والنهضوي، لما شملته من توجيهات ودلالات، ليت يستلهم الشباب منها عبر الأجيال.

إن المطلع والمتمعن في تمثلات البشير الإبراهيمي، وفي كل كتاباته وخطاباته، يدرك جيدا أن الرجل، عليه رحمات الرحمن، ليس مجرد أديب فصيح اللسان، قوي البيان، ولكنه كان مفكرا ذا مشروع نهضوي متين الأركان، ولذا فإن تناول أفكاره ونصوصه لا ينبغي أن يقتصر على جانب الحس الأدبي والفن اللغوي، ولكن يجب أن يمتد إلى قراءة واستنباط دلالات ومرامي كلماته وعباراته، ووضعها مرجعا في التربية والإصلاح والبناء. وما هذه الورقة إلا مجرد مساهمة متواضعة في هذا الاتجاه، مبتغاها الأساس شحذ همة الشاب الجزائري في زمن اليأس والاغتراب.

تهدف هذه الورقة إلى استجلاء أبرز تلك الدلالات المتضمنة في تمثلات الإبراهيمي للشباب الجزائري، مع محاولة إسقاطها على واقع الشباب الجزائري اليوم، الذي يكاد يخيم عليه وضع من اليأس والاغتراب، ولكن دون إغفال للسياق التاريخي، واستجابات تلك الفئة في مسار الثورة وعبر مشروع النهضة. فالهدف إذا هو إعادة إحياء تلك القيم العالية في الوجدان، وزرع الأمل في النفوس. ألا يمثل الشباب ثلثي سكان الجزائر؟

من الواضح أن طبيعة البحث تفرض منهج الاستقراء، غير أن الهدف يستدعي اعتماد منهج الاستنباط، إذ أنه في نهاية المطاف يرتجى استنباط توجهات أساسية من تلك التمثلات، وسوف يتم الاستناد إلى الأسلوب السيميولوجي في العرض والتحليل، وهو أسلوب يتيح تقديم تصوير تلخيصي للوضعية والمبتغى، حيث إن السيميولجيا تهتم باشتقاق المعنى من النص، والدلالات من الرموز.

سوف تتم المعالجة من خلال ثلاثة محاور الآتية:

- إطلالة على همة الإبراهيمي الشاب
- الشيخ الإبراهيمي والشباب: الترابط الوجداني
- عرض وتحليل سيميولوجي لمقال التمثلات

1- إطلالة على همّة الإبراهيمي الصبي والشاب:

كتب الشيخ البشير الإبراهيمي (1306هـ/1889م- 1385هـ/1965م) خلاصة عن حياته العلمية والعملية[2]، وهي منشورة ومتاحة في عدد من المواقع[3]، كما وأورد نجله مقتطفا من مراحل حياة والده في الجزء الأول من الآثار، ومما يستخلص منها نبوغه منذ صغره[4]، فلقد حفظ القرآن في سن التاسعة وعددا من المصنفات[5]، وفي سنه الحادية عشر بدأ في دراستها بحثا وتدقيقا، وفي سن الرابعة عشر بدأ في إلقاء الدروس في منطقته، فلقد كان منذ الصبى موهوبا شغوفا بالعلم ملازما لأهله، وهو ما ساعده في صقل ملكاته ومواهبه، وأكسبه فصاحة في اللسان وبداهة في الكتابة والتعبير وبراعة في الأداء وحكمة في التعامل مع المواقف، وهو ما تجلى في الإبراهيمي الشاب وبعده.

مع إن فترة الشباب لدى البشير الإبراهيمي كانت حافلة، إلا اننا نكتفي بالإشارة إلى محطتين:

- في سنة 1911م كان عمر الإبراهيمي 22 سنة حين قرر الخروج متخفيا قاصدا المدينة المنورة، ملتحقا بأبيه التي سبقه إليها في سنة 1908م، فرارا من ظلم فرنسا، وفي طريقه أقام بمصر ثلاثة اشهر، وكان خلالها يحضر مجالس العلم بالأزهر الشريف وتعرف على علمائها، ومنها عبر البحر إلى الحجاز، ووصل المدينة المنورة أواخر سنة 2011، كما ذكر في خلاصة سيرته، ومما قال في ذلك: "وطفت بحلق العلم في الحرم النبوي مختبرا، فلم يرق لي شيء منها، وإنما غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيء، ولم أجد علما صحيحا إلا عند رجلين هما شيخاي: الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي".
- في سنة 1913م كان عمر الشابين عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي 24 سنة، حين التقيا ولأول مرة بالمدينة المنورة، تبادلا خلال اللقاء، الذي استمر لثلاثة أشهر، هموم الجزائر المحتلة وسبل الإصلاح والنهضة، وكان أول تأسيس لعمل إصلاحي مستدام، أفضى في 1931م إلى ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. قال الشيخ الإبراهيمي: "كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منزلي فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية الثلاثة أشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة...". كما أثنى الشيخ ابن باديس كثيرا على صديقه الإبراهيمي في مناسبات عديدة، ووصفه بأروع الأوصاف، فقال عنه: "إن الإبراهيمي وعاء من العلم والمعرفة والذكاء، وإنا لنرجو على يده خيرا كثيرا للإسلام والجزائر".
- في شتاء سنة 1917، أي في عمره 28 سنة، انتقل إلى دمشق، حينما أمرت الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة كلهم إلى دمشق، وما لبث شهرًا بدمشق حتى انهالت عليه الرغبات في التعليم بالمدارس الأهلية، فاستجاب لبعضها، ثم أُقترح لإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي.

- في سنة 1920 غادر، أي في عمر 31 سنة، قرر الإبراهيمي مغادرة دمشق باتجاه الجزائر ليشرع في مرحلة جديدة، وهي مرحلة الإصلاح والبناء الفكري، وقد عرض عليه حينها الأمير فيصل بن الحسين بدمشق تولي إدارة المعارف بالمدينة المنورة، ولكنه اعتذر له ودخل الجزائر.
- في 1940 نفته السلطات الفرنسية إلى آفلو (ولاية الأغواط)، على إثر مقال مناهض للاحتلال، ولم يطلق سراحه إلى غاية 1943. وبعد نفيه بأسبوع توفي الشيخ عبد الحميد ابن باديس (16 أفريل 1940)، وانتخب الشيخ البشير الإبراهيمي رئيسا لجمعية العلماء وهو في منفاه.
- إلى غاية وفاته في 20 ماي 1965 عاش الشيخ البشير الإبراهيمي مصلحا مربيا ومناضلا غايته تربية النشء على القيم الإسلامية وبث العزيمة فيهم، إدراكا منه أن ثروة الأمم إنما تكمن في رأس المال البشري الذي تزخر به، وهو عماد النهضة والبناء المادي للمجتمع.

إن هجرة البشير الإبراهيمي إلى ديار الغربة لم تكن طلبا للقوت بقدر ما كانت طلبا للعلم وفرارا من الظلم والانغلاق الذي مارسهما الاحتلال الفرنسي، حيث كانت أفق مداركه أوسع مما هو متاح في دياره، فأول ما كان يبحث عنه هو العلم ومجالسه، والوظيفة (أي القوت) كانت تطلبه قبل أن يبحث عنها. ولا ننسى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد هاجر إلى المدينة المنورة فرارا من بطش قريش، ولكنه عاد إليها بعد أن تجهز لذلك. فالبشير الإبراهيمي، وهو في المدينة المنورة، وهو في منتصف العشرينيات، كان يخطط، مع صديقه الشاب عبد الحميد ابن باديس، لآليات الإصلاح، وتوج ذاك بإنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي ما تزال قائمة إلى اليوم.

ومن ناحية أخرى، فإن العبرة في ذكر بعض من محطات الإبراهيمي الشاب هو إبراز علو الهمة التي كان يتقد بها الإبراهيمي، فما بلغه من العلم إنما كان وراءه تضحية عظمى وبُعد بصر، فكان منظما لوقته مرتبا لأعماله، مقداما في مشاريعه حاسما في قراراته، واثقا في كل ذلك بالله تعالى بما وفره له من ملَكات، مستجيبا بذلك للحديث النبوي "...وشبابك فيما أفنيت..."[6]. غير أن الإبراهيمي كان أيضا يؤمن بالعمل الجماعي في مشروعه، وهو مشروع نهضوي كبير، مشروع الإصلاح ومكافحة الجهل، فحسب الإبراهيمي "الأعمال الكبيرة إذا توزعتها الأيدي، وتقاسمتها الهمم، هان حملها وخف ثقلها، وإن بلغت في العظم ما بلغت"، وهو ما ظل من المبادئ الأساسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

2- لماذا يخاطب الشيخ الإبراهيمي فئة الشباب؟

حينما يخاطب الإبراهيمي فئة الشباب فهو في الحقيقة يخاطب سمات تميزهم، ومنها:

- مرحلة الشباب هي مرحلة القوة والشدة والحركية.
- تقبلهم للجديد المستحدث والدفاع عنه، وكذا عنفوانهم الداخلي، إذ تجدهم لا يقبلون بالضغط والقهر مهما كانت الجهة التي تمارسهما عليهم، أسرة أم سلطة[7].

- الشباب هم عماد التغيير عبر مختلف العصور والمجتمعات[8].
- تربية وتكوين الشباب وإصلاحهم هو أيضا إصلاح للأجيال، إذ هم الذين سيصبحون آباء وأصحاب مسؤوليات في الأسرة وفي المجتمع.
- بالمقابل، جهل الشباب وفسادهم هو فساد لكل المجتمع، فكما هم الأقدر على نشر الفضيلة، فهم أيضا، إذا لم يعتنى بهم، الأقدر على نشر الرذيلة وبث الفوضى.

لقد أدرك الإمام البشير الإبراهيمي ببداهته وحكمته أن تغيير المجتمع وإصلاحه إنما يكون بالتربية والتعليم، وأن فئة الشباب هي معاول هذا التغيير، ولذلك كان اهتمامه بالشباب والمساهمة في حسن تنشئته أكبر همه. ولا ننسى التذكير بالسياق التاريخي لتمثلات الإبراهيمي للشباب في سنة 1947، حيث كانت الجزائر تحت وطأة الاحتلال الفرنسي الغاشم منذ 1830 (أي 117 سنة احتلال)، الذي ولّد كثيرا من المآسي، أهمها توطيد الأمية والتجهيل، كما ونذكّر أن الإبراهيمي كان يتحدث بصفته رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في زمن احتلال واستعداد للثورة، وما بعدها البناء وإعادة النهوض.

غير أن أفق الشيخ البشير الإبراهيمي كان أوسع وأمدّ، فهو لم يكن يفكر في فترة الاحتلال بقدر ما كان يفكر لما بعد الاستقلال، إذ أنه مدرك تماما أن الاحتلال سينتهي لا محالة، مهما طال زمنه، ولكن كيف يمكن مواجهة مرحلة البناء والتنمية؟ ولئن كان همّ الإبراهيمي الأكبر غرس القيم النبيلة في الشباب، لم يغفل أيضا عن ضرورة تكوين الشباب في شتى المعلوم والمعارف.

3- عرض وتحليل سيميولوجي لمقال التمثلات:

الهدف من هذا المحور هو استلهام الدلالات والمعاني المتضمنة في خواطر الشيخ البشير الإبراهيمي "الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر"، التي نشرت في جريدة البصائر في شهري سبتمبر وأكتوبر 1947، وسوف يتم التركيز والتحليل على معالمها المحورية وتمثيلها في مخطط تلخيصي. وحيث إن الخطاب موجه للشباب، وهو عبارة عن تمنيات وتمثلات، فإن طابعه استشرافي، يحوي في طياته توجيهات وقيم عديدة، منها ما يتعلق في البناء الروحي، ومنها ما يتعلق بالبناء المادي، وكلها تصب في اتجاه ايقاظ النفوس وشحذ الهمم وتقوية العزائم.

في ما يلي ملخص هذه التمثلات بمقاطعها الأربعة في عباراتها الأولى، والتي تتضمن جوهر المقصد من كل منها:

(1)

أتمثّله متساميًا إلى معالي الحياة ...

أتمثَّله مقدامًا على العظائم ...

أتمثّله واسع الوجود ...

أتمثّله حِلْفَ عمل ...

أتمثّله برًّا بالبداوة التي أخرجت من أجداده أبطالًا ...

أتمثّله مقبلًا على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع ...

يا شباب الجزائر، هكذا كونوا! ... أو لا تكونوا... !

(2)

أتمثّله محمديّ الشمائل ...

أتمثّله متقلّبًا في الطاهرين والطاهرات، ارتضع أفاويق الإصلاح صبيًا، وزُرَّتْ غلائلُه عليه يافعًا

ما قيمة الشباب؟ بل ما قيمة الكهولة؟ بل ما قيمة المشيب؟ ...

إذا لم تنفق دقائقه في تحصيل علم، ونصر حقيقة، ونشر لغة، ونفع أمة، وخدمة وطن.

يا شباب الجزائر، هكذا كونوا ... أو لا تكونوا...

(3)

أتمثّله كالغصن المُروح، مطلولًا بأنداء العروبة ...

أتمثّله مجتمع الأشدّ على طراوة العود، بعيد المستمرّ على ميعة الشباب، ...

فتح عينيْه على نور الدين؛ وفتح عقله على حقائق الدين؛ فاهتدى بها إلى عظمة المكوّن؛ ومن هذه النقطة يبدأ سموّ النفوس السامية.

أتمثّله مجتلًى للخِلال العربية التي هي بواكير ثمار الفطرة ...

أتمثّله مترقرق البشر إذا حدّث، متهلّل الأسِرَّة إذا حُدّث، مقصورَ اللسان عن اللغو ...

أتمثّله شديدَ الغيرة، حديدَ الطيرة، يغار لبنت جنسه أن تبور، وهو يملك القدرة على إحصانها ...

يا شباب الجزائر، هكذا كونوا! ... أو لا تكونوا

(4)

أتمثّله حنيفًا فيه بقايا جاهلية ... يدّخرها لميقاتها، ويوزّعها على أوقاتها، يردّ بها جهلَ الجاهلين،...

أتمثّله معتدلَ المزاج الخُلُقي بين الميوعة والجمود، وبين النسك والفتك تتّسع نفسه للعقيق،...

أتمثّله كالدينار يروق منظرًا، وكالسيف يروع مخبرًا، وكالرمح أمدحُ ما يوصف به أن يقال ذابل، ...

أتمثّله عفّ السرائر، عفّ الظواهر، لو عرضت له الرذيلة في الماء ما شربه، وآثر الموت ظمأ على أن يرد أكدارها ..

أتمثّله جديدًا على الدنيا، يرى من شرطها عليه أن يزيد فيها شيئًا جديدًا، ...

أتمثّله مقدّمًا لدينه قبل وطنه، ولوطنه قبل شخصه، يرى الدين جوهرًا، والوطن صدفًا، ...

أتمثّله واسعَ الآمال، إلى حد الخيال، ولكنه يُزجيها بالأعمال إلى حد الكمال، ...

أتمثّله مصاولًا لخصومه بالحجاج والإقناع، لا باللجاج والإقذاع، مُرْهبًا لأعدائه بالأعمال، لا بالأقوال. ...

أتمثله بانيًا للوطنية على خمس كما بني الدين قبلها على خمس: السباب آفة الشباب، واليأس مفسد للبأس، والآمال لا تدرك بغير الأعمال، والخيال أوّله لذة وآخره خبال والأوطان لا تخدم باتّباع خطوات الشيطان.

يا شباب الجزائر، ... هكذا كونوا ... أو لا تكونوا.

سنحاول من خلال الجداول الموالية تلخيص هذه التمثلات، مع بيان أهم المقاصد المتوخاة من كل منها:

(1)		
التمثل	**المعاني والدلالات**	**القيم والمقاصد**
أتمثله متساميًا إلى معالي الحياة، عربيدَ الشباب في طلبها، طاغيًا عن القيود العائقة دونها ...	علو الهمة، العزيمة، التحدي	قيمة العزيمة، حفظ النفس والمال
أتمثله مقدامًا على العظائم، ...	علو الهمة، التحدي، الابداع	قيمة العزيمة، حفظ النفس والمال
أتمثله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كل عربي أخًا له أخوةَ الدم، وكلَّ مسلم أخًا له أخوة الدين...	الانتماء، الأخوة	وحدة الأمة، حفظ الدين
أتمثله حِلْفَ عمل، لا حليف بطالة، وحلس معمل، لا حلس مقهى، ...	العمل عبادة	العمل، حفظ النفس والمال
أتمثله برًّا بالبداوة التي أخرجت من أجداده أبطالًا...	الانتماء والاعتزاز وعدم نكران الذات	قيمة العزة، حفظ الدين والنسل
أتمثله مقبلًا على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع...	العلم والمعرفة	قيمة العلم، حفظ العقل
يا شباب الجزائر، هكذا كونوا! ... أو لا تكونوا...		

جدول (1): قيم ودلالات ومقاصد المقطع الأول من تمثلات الإبراهيمي للشباب الجزائري

(2)		
التمثل	**المعاني والدلالات**	**القيم والمقاصد**
أتمثله محمديّ الشمائل، غير صخّاب ولا عيّاب، ولا مغتاب ولا سبّاب، ...	الانتماء الديني، الأخلاق والآداب	قيمة الاقتداء بالسنة، حفظ الدين
أتمثله متقلّبًا في الطاهرين والطاهرات، ارتضع أفاويق الإصلاح صبيًا، وزُرَّتْ غلائلُه عليه يافعًا ... **ما قيمة الشباب؟ بل ما قيمة الكهولة؟ بل ما قيمة المشيب؟ إذا لم تنفق دقائقه في تحصيل علم، ونصر حقيقة، ونشر لغة، ونفع أمة، وخدمة وطن...**	نقاوة النفس، الصلاح والإصلاح ونفع الأمة	قيمة الطُّهر والإصلاح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظ الدين، حفظ العقل والنسل
يا شباب الجزائر، هكذا كونوا! ... أو لا تكونوا...		

جدول (2): قيم ودلالات ومقاصد المقطع الثاني من تمثلات الإبراهيمي للشباب الجزائري

(3)		
التمثل	المعاني والدلالات	القيم والمقاصد
أتمثّله كالغصن المَرُوح، مطلولًا بأنداء العروبة ...	الانتماء القومي والاعتزاز	قيمة اللغة العربية، مقصد حفظ الدين والعقل
أتمثّله مجتمع الأشدّ على طراوة العود، بعيد المستمرّ على ميعة الشباب، ... فتح عينيْه على نور الدين؛ وفتح عقله على حقائق الدين؛ فاهتدى بها إلى عظمة المكوّن؛ ومن هذه النقطة يبدأ سموّ النفوس السامية.	المروءة، سعة الوجدان، فعل الخير، والتأمل في الخلق	تنمية العقيدة، قيمة فعل الخير والتضامن، سمو النفس وقيمة العلم، حفظ الدين والعقل
أتمثّله مجتلًى للخِلال العربية التي هي بواكير ثمار الفطرة	الانتماء اللغوي والقومي	قيمة الانتماء والعزة، حفظ النفس والنسل
أتمثّله مترقرق البشر إذا حدّث، متهلّل الأسِرَّة إذا حُدّث، مقصورَ اللسان عن اللغو ...	نبذ اللغو واتقاء المحرمات، والدفاع عن الوطن	قيمتي صون اللسان والاتزان، الابتعاد عن الحرام واقتفاء الطيبات، قيمة الوطنية، حفظ الدين والنفس والنسل
أتمثّله شديدَ الغيرة، حديدَ الطيرة، يغار لبنت جنسه أن تبور، وهو يملك القدرة على إحصائها	المروءة والغيرة، الحث على الزواج وبناء الأسرة	قيمة العرض، قيمة المروءة، قيمة التعفف والتحصين، حفظ الدين والنفس والنسل
يا شباب الجزائر، هكذا كونوا! ... أو لا تكونوا...		

جدول (3): قيم ودلالات ومقاصد المقطع الثالث من تمثلات الإبراهيمي للشباب الجزائري

(4)		
التمثل	المعاني والدلالات	القيم والمقاصد
أتمثّله حنيفًا فيه بقايا جاهلية ... يدّخرها لميقاتها، ويوزّعها على أوقاتها، يردّ بها جهلَ الجاهلين،...	المروءة والرجولة، القوة والحزم، دفع التراخي والضعف ومواجهة الجهال	قيمة الرجولة (بناء الرجال)، قيمة العزة، قيمة العلم، حفظ العقل والنفس والمال
أتمثّله معتدلَ المزاج الخُلُقي بين الميوعة والجمود، وبين النسك والفتك تتّسع نفسه للعقيق،...	الوسطية والاعتدال والاتزان في الفكر والفعل	قيمة الاعتدال، نبذ التهور، قيمة الإنسانية (بدلا من الحيوانية)، حفظ الدين والنفس والعقل والنسل
أتمثّله كالدينار يروق منظرًا، وكالسيف يروع مخبرًا، وكالرمح أمدحُ ما يوصف به أن يقال ذابل، ...	طهارة وسمو ورفعة، عزة النفس واطمئنان القريرة، شحذ الهمم وتوخي الحلال ونبذ التواكل	قيمة طهارة النفس وسمو الروح، قيمة العمل، حفظ النفس والمال والنسل
أتمثّله عفّ السرائر، عفّ الظواهر، لو عرضت له الرذيلة في الماء ما شربه، وآثر الموت ظمأ على أن يرد أكدارها ..	عفة السريرة، نبذ الرذيلة وابتغاء الحلال في السعي	قيمة العفة، قيمة الفضيلة وقيمة السعي في الحلال، حفظ الدين والنفس والنسل

أتمثّله جديدًا على الدنيا، يرى من شرطها عليه أن يزيد فيها شيئًا جديدًا، ...	الإبداع والتجديد المستمر، ونفع الأمة بالابتكار	قيمة الفكر والإبداع، حفظ العقل والنسل
أتمثّله مقدّمًا لدينه قبل وطنه، ولوطنه قبل شخصه، يرى الدين جوهرًا، والوطن صدفًا، ...	الالتزام بسلم قيم الانتماء: الدين، الوطنية، الفردانية	الدين قبل الوطن، والوطن قبل الفرد، مبدأ المصلحة العامة تغلب المصلحة الخاصة، مقصد حفظ الدين والنسل
أتمثّله واسعَ الآمال، إلى حد الخيال، ولكنه يُزجيها بالأعمال إلى حد الكمال، ...	الأمل والتفاؤل مع العمل والتفاني	قيمة الأمل والطموح، نبذ اليأس، قيمة الإتقان والكمال، حفظ الدين والمال
أتمثّله مصاولًا لخصومه بالحجاج والإقناع، لا باللجاج والإقذاع، مُرْهِبًا لأعدائه بالأعمال، لا بالأقوال. ...	لغة الحوار البناء، الحجة والإقناع، وتفادي الجدال العقيم، المغالبة بالأعمال لا بالأقوال	قيمة التحاور والاحتكام للحجة الدامغة، قيمة العمل والإتقان، حفظ الدين والعقل
أتمثله بانيًا للوطنية على خمس كما بني الدين قبلها على خمس: السباب آفة الشباب، واليأس مفسد للبأس، والآمال لا تدرك بغير الأعمال، والخيال أوّله لذة وآخره خبال والأوطان لا تخدم باتّباع خطوات الشيطان.	حب الوطن بروح الوطنية والمساهمة وبناء الوطن له خمسة أركان، كما للدين خمسة أركان: تشبيه بليغ	القيم المثلى أساس بناء الأوطان، والشباب عماد هذا البناء، حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل
يا شباب الجزائر، هكذا كونوا! ... أو لا تكونوا...		

جدول (4): قيم ودلالات ومقاصد المقطع الرابع من تمثلات الإبراهيمي للشباب الجزائري

يجدر تسجيل بعض الملاحظات بخصوص بعض مما ورد في الجداول أعلاه للتوضيح، كما يجدر إبراز أهم القيم التي كانت محل تركيز في هذه التمثلات:

- المقاصد المذكورة في كل تمثل لم ترد على سبيل الحصر، ولكن على ظاهر النص، ذلك أن المقاصد الشرعية الخمسة (حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل) متكاملة ومستهدفة في كافة التمثلات، فمقاصد الإبراهيمي كلها ذائبة في مقاصد الشرع الحنيف.
- حفظ النسل لا يقتصر على الزواج والتكاثر فحسب، ولكن أيضا حفظ الأسرة والأولاد والأجيال من المحرمات والموبقات وكل المخلفات السلبية. وإن كان الإبراهيمي رغّب الشباب وحثهم على الزواج في آخر المقطع الثالث (يغار لبنت جنسه أن تبور، وهو يملك القدرة على إحصانها).
- شحذ همة الشباب والرفع من عزائمهم أخذت حصة الأسد في وصايا الإبراهيمي، ونقيض ذلك نبذ اليأس والبأس، والأمل دون العمل.
- المقوم الآخر الذي ركز عليه الإبراهيمي تحفيز الشباب على طلب العلم، وعلى المبادرة والإبداع، وحتى بلوغ حد الإتقان والكمال، ونقيض ذلك نبذ الجهل والابتعاد عن سلوك التمرير والترقيع.
- التنافس في الفضائل والنأي عن الرذائل هي من الخصال الحميدة التي يتمثلها الإبراهيمي في شباب الجزائر.
- حب الوطن قيمة عليا، والمساهمة بإخلاص في بنائه واجب، ولكن ذلك يكون من منطلق قيم المجتمع.

- الوطن في رؤية البشير الإبراهيمي ينصهر في وحدة الأمة، ولذلك فهو يدعو إلى إنشاء الجامعة الإسلامية. والجامعة الإسلامية التي كان يدعو إليها الإبراهيمي ويبتغي تحقيقها تجسدت فيما بعد في منظمة المؤتمر الإسلامي، وإن كان تأثيرها ما يزال محدودا[9].
- تأكيد الإبراهيمي على ربط الآمال بالأعمال في المقطع الرابع يعني أن الآمال والطموحات من دون الأخذ بالأسباب لا تعدو أن تكون مجرد أوهام وأحلام، كما إن صاحب العلم الذي لا ينفع به لا يعدو أن يكون "كمثل الحمار يحمل أسفارا".
- انغماس الشيخ الإبراهيمي طوال حياته في التربية والإصلاح يعكس في الحقيقة استجابة لنداء وجداني بإلهام رباني واقتناع عقلاني سعى من أجله وعمل لتحقيقه، وقد بلغ في ذلك مبلغا مشهودا له.
- كان البشير الإبراهيمي يحث على العمل الجماعي، أو عمل الفريق، ويدرك أن العمل الفردي مهما بلغ مستواه قاصرا، خاصة إذا كان الهدف متعاليا وحضاريا، وليس أدل على ذلك من سعيه وأخيه ابن باديس، رحمهما الله، لإنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

إن مختلف التمثلات الإبراهيمية الملخصة أعلاه تتضمن عديد الدلالات الواضحة والرمزية، وهي تحتاج إلى تفكيك لمضامينها وترابطاتها، واستقراء لمعانيها ومدلولاتها، وهو ما يندرج ضمن يعرف بالتحليل السيميولوجي. والسميولوجيا (أو علم الإشارات) تعنى باستخراج المعاني والدلالات من النصوص، مقروءة أكانت أم مسموعة أم مرئية، والعمل على الربط فيما بينها لإبراز العلاقات والتفاعلات الممكنة. وفي الغالب يُلجأ إلى استعمال الأشكال البيانية لتلخيص تلك المدلولات وتوضيح تلك العلاقات.

انطلاقا من الجداول اعلاه، الملخصة لكل مقطع من التمثلات، والمتضمنة أبرز القيم والمعاني المستلهمة منها، نقدم المخططات التلخيصية التالية، التي تنطوي على قراءة سيميولوجية لها من ناحية، وعلى مقابلة تمثلية ما بين شيخ يتمثل الشباب الجزائري كما يريده منذ أزيد من سبعين سنة (1947)، وشباب يتمثل الواقع كما يطمحه، وجلهم لا يجده، يعيش مفارقة الأمل والطموح من جهة، واليأس والجنوح للهجرة من جهة ثانية. مع الإشارة إلى أنه تم تقسيم تمثلات شباب اليوم على فئتين (مخطط رقم 2): فئة تتمثل واقعا برؤية تفاؤلية، وفئة تتمثله بنظرة تشاؤمية.

يمكن تصوير هذه التمثلات من خلال المربع السيميولوجي التالي:

مخطط (1): مخطط تلخيصي لتمثلات الإبراهيمي للشباب الجزائري

مخطط (2): مقاربة تمثلات الإبراهيمي بواقع وتمثلات الشباب الجزائري اليوم (أ)

انطلاقا من المخطط السابق يمكن تجميع تمثلات الإبراهيمي وتمثلات الشباب الجزائري اليوم من خلال المخطط التالي:

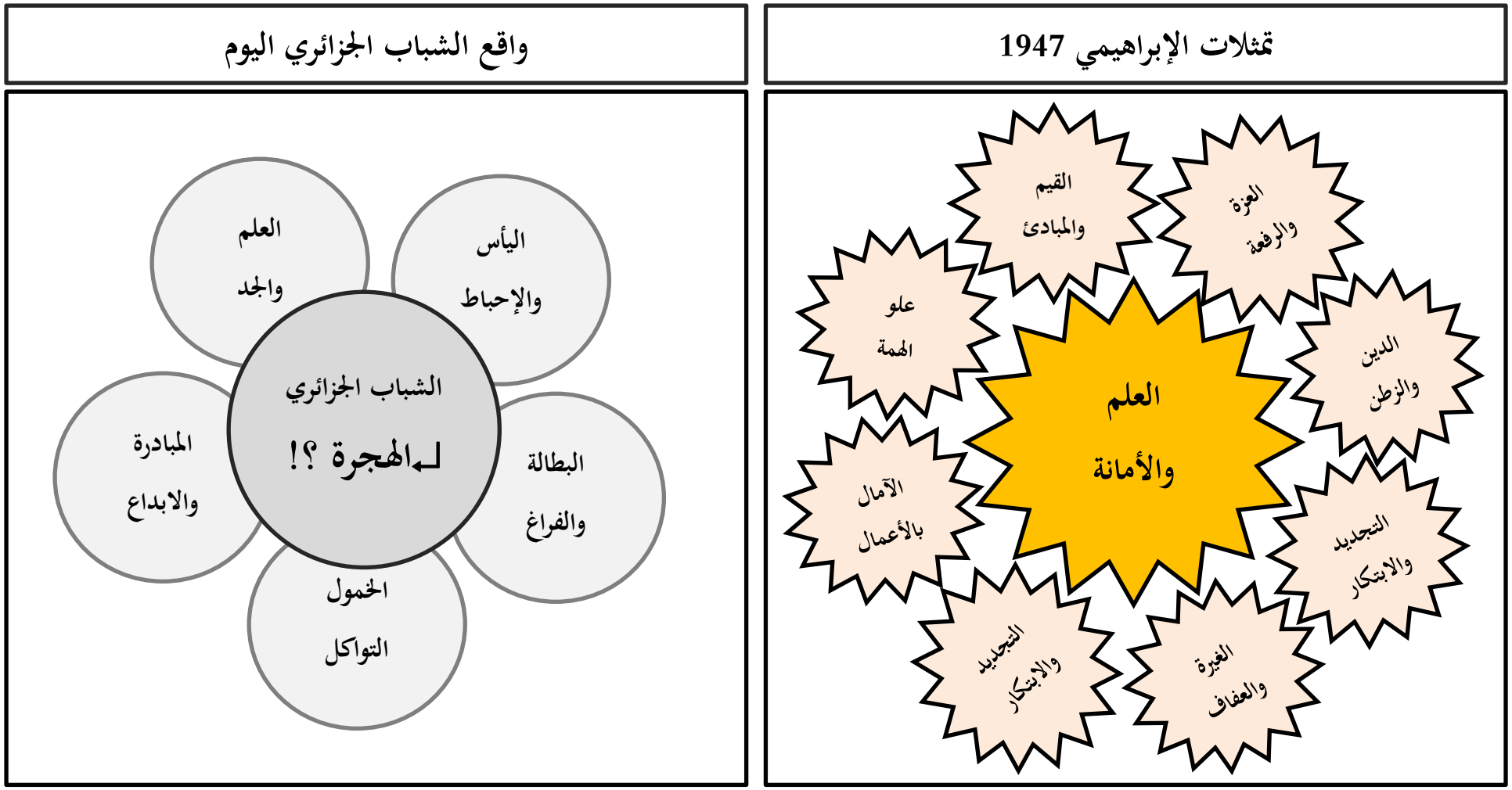

مخطط (3): مقاربة تمثلات الإبراهيمي بواقع وتمثلات الشباب الجزائري اليوم (ب)

يتضح مما أوردناه في المخططين رقم2 ورقم3 أن الشباب الجزائري على فئتين: فئة ركبت موجة الأمل والتغيير نحو الأفضل، وهي نخبة المجتمع، منها ما يزال في طور التعليم والتكوين، ومنها ما يساهم فعلا في البناء بكل ما أوتي من طاقة ذهنية وجسدية، كل عبر منصبه وحرفته ومستواه، وفئة ركبتها موجة اليأس وخيّم عليها الخمول والتكلان، فما لها غير الأقوال دون الأفعال، والتنادي بالنقمة دون شكر النعمة، فلا هي نفعت نفسها ولا نفعت غيرها.

فمع إنه لابد من الإقرار بمصاعب واقع الحال، وما يواجهه الشباب من تحديات عضال[10]، عكرت وجدان بعضهم ووطدت في أفقهم غموض المآل، إلا أنه لا ينبغي بحال الخنوع والاستسلام وردم الآمال، بل وإنه يتعين (فرض عين) على كل فرد الجد والإخلاص والبذل في كل الأحوال، وأساس ذلك العلم بشتى ميادينه وتخصصاته، في المعاهد والمراكز والجامعات. فالوطن والمواطنة ليستا مجرد شعار، يتغنى به المتشدقون في وسائل الإعلام ومختلف المنابر، ولكنها أقوال وأفعال وآثار.

ومن باب التفاؤل أيضا والاعتزاز بشبابنا نبلغ رسالتنا إلى الشيخ البشير الإبراهيمي، رحمه الله وجعل مقامه مع الأنبياء والصالحين، لطمأنته أن تمثلاته لم تتبخر، بل هي حاضرة اليوم وغدا، فشباب الجزائر يرفع التحدي في وطنه وأينما حلّ، لا تثنيه العقبات ولا تقعده الزلات، وهو يظل متمسكا يقيم دينه السمحاء، ومبادئ ثورته الغراء، دون تجاهل لما يحدث حوله من تحولات وتطورات في مختلف الأرجاء.

ولا شك في أن إطلاق ملتقى دولي سنوي حول أعمال محمد البشير الإبراهيمي بكلية الآداب واللغات بجامعتنا، جامعة محمد البشير الإبراهيمي، وقد كان لي شرف المساهمة في ذلك، يعد من قبيل التقدير والاعتزاز بأعماله، والسعي نحو الاستلهام من تجربته وآثاره، آملين لهذا الملتقى النجاح والاستمرار بتوفيق الله تعالى وغيرة وعزيمة ثلة من الشباب الأبرار بهذه الكلية.

خاتمة:

ستظل تمثلات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي للشباب الجزائري حروفا من ذهب، لا تصدى ولا تفنى، غالية متجذرة في وجدانهم، باعثة لعزائمهم شاحذة لهممهم، ففضلا عما تحمله من جمال اللغة وفن البلاغة، فهي ملأى بالمعاني والقيم السامية، حتى إن قارئها ما يلبث إلا ويرغب في إعادة قراءتها، وكل تمثل فيها يعكس جملة من النصائح والتوجيهات العملية، تنمّ عن صدق المصدر وبعد النظر.

يمكن في الختام تسجيل النتائج والتوصيات التالية:

- مع إن مقال التمثلات الموجهة للشباب الجزائري له مكانة خاصة ضمن الآثار المدونة عن الشيخ الإبراهيمي، إلا أنه في الحقيقة جل خطابات الإبراهيمي وكتاباته موجهة لفئة الشباب، كما وإن كل أعماله، المدون منها وغير المدون، ينطوي على توجيهات وتمثلات، سواء أكانت صريحة أم ضمنة، بل وحتى جلساته الحميمية لا تخلو من النصح والتمثل للأفضل.

- مقال التمثلات للإبراهيمي يستحق تحليلا أكثر عمقا من النواحي السيوسيولوجية والتربوية والأدبية واللغوية، ويمكن أن يستخرج منه نموذج تربوي في تربية النشء وإعداد الشباب. وفي هذا الإطار نوصي باقتراحه موضوع دراسة في مذكرات جامعية في كليات الآداب واللغات وكليات العلوم الاجتماعية.
- الاستثمار في تكوين النشء والشباب هو الخيار الاستراتيجي الأولي، وعلى أساسه تبنى كل الاستراتيجيات التنموية الأخرى، وهو صمام الأمان من كل الانحرافات المسببة للاختلال والمعمقة للتخلف.
- إدراج وإيلاء أهمية خاصة للتمثلات الإبراهيمي في البرامج الدراسية المتعلقة باللغة وبالتربية المدنية والإسلامية.
- بالنظر إلى أن آثار الشيخ البشير الإبراهيمي تنطوي في جلها على أبعاد تربوية، نوصي بتخصيص نسخة من هذا الملتقى الدولي لدراسة واستجلاء الأبعاد التربوية والاجتماعية في أعمال محمد البشير الإبراهيمي.

هوامش البحث:

[1] أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ص388.

[2] كتب الشيخ هذه الخلاصة عن سيرته بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عندما انتخب عضوا عاملا فيه سنة 1961، ونشرتها مجلة "مجمع اللغة العربية"، مجلد 21، القاهرة، 1966.

[3] راجع مثلا موقع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: http://www.oulamadz.org

[4] أشار إلى ذلك الشيخ الإبراهيمي في الخلاصة: "... لأن الله تعالى وهبني حافظة خارقة للعادة, وقريحة نيّرة, وذهنًا صيودًا للمعاني ولو كانت بعيدة ...".

[5] يقول الشيخ الإبراهيمي: "فما بلغت تسع سنين من عمري حتى كنت أحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه, وكنت أحفظ معه ألفيه ابن مالك ومعظم الكافية له, وألفية ابن معطي الجزائري وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر, وأحفظ جمع الجوامع في الأصول, وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني, ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب, وأحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التلسماني, شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة, وأحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس مثل ابن شهيد, وابن برد, وابن أبي الخصال, وأبي المطرف بن أبي عميرة, وابن الخطيب، ...".

[6] جاء في الحديث الذي رواه ابن حبان والترمذي عنِ ابن مسعود رضي الله عنه: "لا تزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عن أربعٍ عَن عُمُرِه فيما أفناهُ وعن جسدِهِ فيما أبلاهُ وعن عِلمِهِ ماذا عَمِلَ فيهِ وعن مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفيما أنفقَهُ".

[7] بومدفع الطاهر، الشباب في المجتمع الجزائري مشاكل وطموح الدور التنموي، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم، مجلد4، العدد 6، 2017، ص ص 92-106.

[8] نشير هنا على سبيل المثال إلى أهل الكهف: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى" (الكهف، 13)، وإلى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام: "قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ" (الأنبياء، 60).

[9] بلعربي عبد القادر، البعد الإسلامي في كتابات البشير الإبراهيمي، مجلة آفاق للعلوم، جامعة الجلفة، مج1، العدد2، 2016، ص ص242-248.

[10] من أبرز هذه التحديات: ضيق فرص العمل (المأجور والذاتي)، الانفتاح الثقافي واضمحلال الضوابط، ضيق مجال الحريات، تفشي بعض القيم الدخيلة، تنامي بعض الآفات الاجتماعية، وغيرها، وهي تؤثر على بناء السلوك السوي للشباب.